مصر في الوجدان الوطني الفلسطيني

د. فيصل دراج *

أسباب متداخلة علّمت الفلسطينيين أن مصر ظهير لهم، وجعلت المصريين يؤازرون القضية الفلسطينية ويقدمون لها الدعم المتاح. هناك التاريخ، في حكمته الخاصة، الذي شدّ الطرفين إلى بعضهما، منذ أن جاء إبراهيم باشا إلى فلسطين، في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، إلى حرب ١٩٤٨، التي قاتل فيها الجيش المصري بأسلحة فاسدة. في هذا التاريخ جغرافيا، هي ظل له، تصل مصر بجنوب فلسطين وتعيّنه معبراً، لا بدّ منه، إلى الشرق، وتعطي الجنوب الفلسطيني، المنفتح على سيناء، مجالاً للحركة، إن كانت الشروط ملائمة.

احتوى المعطى التاريخي ـ الجغرافي بعداً ثقافياً، لم يختره أحد، ضمنته وحدة اللغة والدين وإشارات ثقافية، تقصّر المسافة بين جامع الأزهر والحرم الشريف، وتجعل صورة مصر أليفة ومألوفة في المتخيّل الفلسطيني. وسواء أكانت الرابطة القومية، أو ما يدعى بذلك، واضحة أو مجزوءة الوضوح، فقد رأى الوعي الفلسطيني في مصر عمقاً فلسطينياً بقدر ما أدرك المصريون أن في فلسطين امتداداً لهم. لم يأتِ الأمر من "المصير المشترك"، بلغة خطابية، بل تجلّى معطى تاريخياً أقرب إلى البداهة، صاغته الثقافة والجغرافيا، وأقدار الفلسطينيين الفاجعة.

حفظت ذاكرة الفلسطينيين، منذ نكبتهم، معادلة أملتها التجربة، قرّر حدها الأول أن الفلسطينيين هم الطرف الأضعف في معارك "الشرق الأوسط"، أكانت هذه المعارك من أجلهم أو ضدّهم، وأكّد

* ناقد فلسطيني

حدها الثاني: أن مصر هي العنصر الأقوى في هذه المعادلة الصعبة، وأن طموحات الفلسطينيين الوطنية، مقبولة كانت أو متواضعة، لاحظّ لها من التحقق إلا بدعم مصري. لم يتكئ الفلسطينيون، وهم يتأملون معادلة مؤسية فرضها غيرهم، على "قوة الموروث" والمصائر المشتركة، بل اهتدوا بتجربة اللجوء، وبتضحيات الجيش المصري المتواترة.

تعلّم الفلسطينيون، من تجاربهم اليومية والدامية، أن مصر هي مركز القرار العربي، وأن غيرها من "المراكز" لا يصبح فاعلاً إلا بها، حتى لو كانت هذه "المراكز" صادقة، وهو أمر أقرب إلى الاحتمال. أنطق هذا الإدراك بعض الفلسطينيين بجملة لا تفتقر إلى الصحة: "إن مصر هي العاصمة العربية الوحيدة، والباقي أقاليم". اعتمد هذا البعض على خبرته، وعلى حسبان سياسي قوي الذاكرة، مؤمناً بأن تحرر الشعب العربي من تحرر مصر، وأن نصرة القضية الفلسطينية بحاجة إلى إرادة عربية متحررة. والمسألة كلها ماثلة في التحرر العربي المنشود، الذي استيقظ أكثر من مرة وغفا.,

تقول دروس التربية الراشدة: لا يحصل التلميذ على تعليم نجيب، إلا إذا كان معلّمه نجيباً. ويأتي السؤال سريعاً: من أين يأتي المعلم النجيب؟ وقد يجيب الفلسطيني الذي يميّز بين "العاصمة والأقاليم" ويقول: المعلم قائم في إمكانيات مصر الكبيرة والمتعددة، والمعلم النجيب قائم في الشعب المصري، الذي يمحو الخطأ بالصواب، ويرد على المعادلات الظالمة باقتراحات عادلة، مثلما برهن أكثر من مرة.

في الثورة المصرية القائمة، والمستمرة منذ ثلاث سنوات وأكثر، ما يعبّر عن إرادة فريدة، مجلاها ومرجعها وصانعها الإنسان المصري البسيط، الذي تراكمت في وعيه ولا وعيه خبرة سبعة آلاف عام. كان الجغرافي المصري الكبير جمال حمدان قد وضع كتاباً هائلاً عنوانه "شخصية مصر ـ دراسة في عبقرية المكان"، قائلاً، بهمس أو بصوت عالٍ: "إن طبيعة الشعوب من طبيعة المكان الذي تعيش فيه". اشتق الجغرافي الراحل وطنية المصريين من جغرافية مصر وتاريخها، تاركاً للفكرة " الفلكلوري" التحدث عن "قوة الإيمان المجرّد" و"عزيمة الأيدي المتوضئة"، التي تسوّق الإيمان أحياناً، وتحوّل "الوضوء" إلى تجارة مربحة.

في الثورة المصرية التي احتشد فيها قهر طويل، ما يعطي أملاً جديداً للفلسطينيين الذين وقع عليهم قهر فادح، منذ سبعة عقود تقريباً.

١ـ مصر: معايشة القهر والانتصار على الانتظار:

قوة كل شعب من الموروث الذي يتكئ عليه، ويعمل على بعثه وترهينه. ويتكشّف الموروث متميزاً حين يكون مسكوناً بـ: سبعة آلاف عام، وبروح شعبية متمردة عنوانها: مصر الخالدة.

حين ضاق محمد حسين هيكل ببؤس الفلاح في ريف مصري كريم استذكر، في روايته "زينب"، جيوش الشمس، جيوش مصر القديمة، التي صوّرها نجيب محفوظ الشاب، بروح وطنية حاشدة، في روايته: "حصار طيبة"، حيث طرد المصريون "الهكسوس"، بعد عقود طويلة من الاحتلال. استجار هيكل، الباحث عن مصر حديثة، بخصوبة الريف وصلابة الفلاح وبأطياف حضارية عبث بها "العنصر التركي" قروناً، بلغة طه حسين.

وحين سقطت الكآبة ثقيلة على محفوظ الشاب، وهو يرى إلى مصر محكومة بإرادة إنجليزية استعمارية وملك غريب الأصول، عاد إلى النور القديم المتاح، كما قال، مستذكراً مجد الفراعنة، الذي استوى شاهقاً فوق أرض النيل. استأنس الروائي بالماضي كي يشرح الحاضر ويتحمّله، وبحث عن ضوء يخفف العتمة القائمة. كان يؤمن، حال مواطنه هيكل، بقوة التاريخ، ويؤمن أولاً بقدرة المصري على استئناس التاريخ القديم وبعثه في الحاضر. كان لديه ما يتكئ عليه، في ظروف الشدّة، وما يختبر به المصري في الحاضر الذي اختبره الماضي، وخرج من الاختبار ناجحاً. ولم يكن الحال مختلفاً لدى توفيق الحكيم، في روايته "عودة الروح"، الذي ذهب إلى أركان التاريخ المصري واستعاد حكمة: "الواحد في الكل، والكل في واحد"، إذ في طموح المصريين ما يوحدهم، وفي "خصوصية الشعب المصري" ما ينصره.

أنتج هيكل والحكيم ومحفوظ أعمالاً أدبية، وكانوا روّاداً في مجالهم، وصوّروا في كتابتهم "روح مصر"، في أحوالها المختلفة، تلك الروح القديمة المقاتلة الصابرة القنوعة الموحدة والمتأهبة للنهوض بعد انتظار. ارتكنوا إلى ما كان واشتقوا منه ما سيكون، ولم يستعيروا افكاراً خارجية، إلا بقدر ما تقبل به مصريتهم، واطمأنوا إلى ما كان وإلى ما سيأتي وانتظروا من المصريين أن يستأنفوا حضارة متعددة الأزمنة. رسموا وطنية الشخصية المصرية، التي تتعاقب عليها السنون وتحتفظ بجوهر قديم، وقرأوا: الوطنية المصرية في تشجرّها العنيد، الذي يقول إن المصري لن يكون غيره، وأنه في صبره وكياسته حريص على استقلاله، وأن استعداده للدفاع عن كرامته لا ينام.

انطوى التاريخ المصري، في أزمنته المختلفة على أطوار ثلاثة: القهر والصبر المقهور، والأنتظار المرهق ومعاناته، والخروج من القهر المتراكم إلى ثورة شاملة توحد بين المدن والريف، وبين أبناء الشعب المصري جميعاً، حال ثورة ١٩١٩، وحال الثورة القائمة اليوم، التي ازاحت عن كرسي الحكم حاكمين، مختلفين في الحسبان والكلام، ولا يختلفان كثيراً في خنق مصر والعبث بمقدراتها. وإذا كان في هاتين الثورتين ما استند إلى موروث شعبي ـ وطني متعدد الطبقات، فإن الوطنية المصرية الفاعلة اختبرت ذاتها في معاركها الخارجية، وفي مواجهاتها مع سلطات محلية، كانت تتحدث عن الشعب وتغتصب حقوقه. استلهمت هذه الوطنية الموروث وعاشته مؤكدة، بين فترة وأخرى،أن الوطنية فعل نقدي

متمرد، قبل أن تكون امتداداً لمتواليات "الحكايات والسير"، الممتدة من مقاومة "حملة بونابرت "إلى أدهم الشرقاوي.

في استذكاره "جيوش الشمس"، كان هيكل الشاب يوجه تحية مضمرة إلى "القوة العسكرية المصرية المنتظرة"، كما لو كان يقرأ مصر في فلاحها، ويقرأ "مصر المحروسة" في قوتها العسكرية عارفاً بحسبانه العقلاني التنويري، أن "فلاح الشمس" لا تستقيم أحواله إلا بجندي مصري مستعد للتضحية ورفيع الانضباط. وهذا الجندي، الذي أضعفته أسباب سلطوية مختلفة، هو الذي سيحارب في فلسطين عام ١٩٤٨ ويخرج غاضباً، ويعاود حربه عام ١٩٥٦ ويسترشد ببطولة "بورسعيد"، ويستأنف المعركة عام ١٩٦٧، إلى أن يحقق ذاته، داخل المعركة، عام ١٩٧٣، وينتظر نتائج سياسية ـ وطنية ترتقي إلى تضحياته.

ومع أن الحروب، التي ضحي فيها المصريون بالكثير، ارتبطت بسياقات متعددة، فان إسرائيل كانت موجودة فيها جميعاً: موجودة حين اغتصبت فلسطين ودفعت بالجيش المصري إلى حرب لم يتهيأ لها، وموجودة حين هندس بن غوريون مع غيره العدوان الثلاثي، وحاضرة مستعدة ومبادرة في حرب "الأيام الستة"، وقائمة بلا مبادرة في "حرب العبور" التي كادت أن تنزل بالإسرائيليين هزيمة مدوّية وغير متوقعة ، لم يعتادوا عليها، لولا عنف التدخل الأمريكي.

شكّلت مصر ، بالفعل والقوة، بلغة الفلسفة علاقة داخلية في القضية الفلسطينية، ذلك أن الاستراتيجية الصهيونية، القائمة على التوسع وعقيدة التفوق والغلبة، فرضت من إسرائيل علاقة داخلية في "المسألة المصرية". فإسرائيل تعرف، منذ ولادتها المصطنعة، أن "مصر الضعيفة" شرط لتمددها المستريح، بقدر ما يدرك الوعي الوطني المصري أن إسقاط المعادلات الصهيونية شرط لنهضة مصر وازدهارها. واعتماداً على هذا الوعي خاض الجندي المصري"حروباً أربعة"، تركت آثارها على المدن والريف والثقافة وأشكال الفكر، وعلى الذاكرة المقاتلة المصرية، التي نطق باسمها الراحل أمل دنقل في قصيدته: لا تصالح.

في هذا المسار المرهق، الذي سكن الذاكرة الوطنية، قدم الإنسان المصري من التضحيات ما استطاع تقديمه وتعلّم أن وطنيّته الفاعلة من "مصر القوية"، التي يعيش فيها وبها ومعه، فمصر المنشودة لا تأتي وحدها إلى أحد، إنما يذهب إليها "أبناء النيل"، بطرق مختلفة، تجمع بين العلم والسلاح، وبين العقل والدين، وبين الغايات والسبل المفضية إليها. لم ينتظر المصريون أحداً يذكّرهم بالمسألة الفلسطينية، منذ أن أصبحت جزءاً من وجودهم المادي والمعنوي.

٢ـ فلسطين في الذاكرة الثقافية المصرية:

ما جاء مبدع مصري إلا وكانت فلسطين حاضرة في نصه، بشكل واضح أو مضمر. ولا ضرورة للوقوف على الأسباب، التي يتمازج فيها الإنساني ـ الأخلاقي والعروبي والديني والوعي العفوي والتجارب العملية، والوعي السياسي القائم على التفسير والتحليل وصولاً إلى لغة يومية، أدخل فيها العهد الناصري مفردات كثيرة.

نبّهت القدس، في رمزيتها الدينية، وبعد وعد بلفور عام ١٩١٧، شعراء مصريين، أيقظهم الخطر الصهيوني فاستجاروا بالخليفة عمر بن الخطاب، ونادوا بحماية "المدينة المقدسة". وبعد سقوط فلسطين، بلغة اليهودي الأمريكي العادل نورمن فلنكشتاين صاحب كتاب "صناعة الهولوكست"، كتب علي محمود طه "نشيد الشرق"، الذي غناه محمد عبد الوهاب، في انتظار شعراء حداثيين، انتمى إليهم صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي، و"عبد الرحمن الشرقاوي حين "كان يحاول أن يكون شاعراً"، وانتمى إليهم في فترة لاحقة شعراء كثيرون منهم: أمل دنقل. ولم يكن حال "شعر العامية"، كما يقال، مغايراً، أكان ذلك في "رباعيات" صلاح جاهين، الرومانسي الحالم الذي "له رائحة العسل"، أو أشعار فريد حداد، الذي أراد أن يكون شعره هو "الشعر في ذاته"، وأحمد فؤاد نجم، الذي أنار طريقه الأعمى البصير الشيخ إمام، وقال في بداية "عهد مرسي": "لقد سرق الإخوان الدولة لكنهم لم يسرقوا الثورة"، وكان مصيباً.

لا تقبل البداهة بالمرور على المفكرين المصريين، الذين حللوا المزاعم الصهيونية ونددوا بها، بعد أن غدا هذا الموقف "شبه قاعدة"، وفي أزمنة الصعود الوطني بخاصة. فقد أضاء لنا الأستاذ حلمي النمنم، في كتابه "طه حسين والصهيونية" "زاوية غير معروفة"، أنزل بها مرتزقة "الإيمان والإيديولوجيا" عبثاً كريهاً، حين اتهموا، بغية مكاسب ومآرب متعددة، السيد العميد بالاقتراب من الصهيونية. وشرح عباس محمود العقاد معنى الصهيونية حين كتب مقدمة لكتاب: "بروتوكولات حكماء صهيون"، وربط بين "المذهب الصهيوني" ومراجعه الدينية. بين مقالات السيد العميد، منذ مطلع ثلاثينات القرن الماضي ومساهمة العقاد في مطلع خمسيناته، ارتفعت في مصر أصوات ماركسية، اعطت العداء للصهيونية شكل العقيدة، فنشر أحمد صادق سعد عام ١٩٤٤ كتابه: "الصهيونية"، ونشر أنور كامل، في مجلات ماركسية، دراسات عن الفكر الصهيوني في عامي ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ صدرت بعد عقود في كتاب عنوانه: "صفحات من اليسار المصري". استأنف أديب ديمتري هذه الجهود، في سبعينات القرن الماضي، ونشر: "الماركسية والمسألة اليهودية"، إلى أن كتب عمله الكبير: "تحطيم العقل" مقارناً بين الصهيونية والفاشية والايديولوجيات العنصرية والظلامية المختلفة.

لم يصدر موقف طه حسين عن ليبراليته العقلانية المتسقة، ولم يأت موقف العقاد من ليبراليته الإنتقائية، وهو الذي صاغ مسار الزمن فكره أكثر من مرة، ولا عن ماركسية متفتحة أو شبه مغلقة، بل عن روح مصرية تعرف الفرق بين الظلم والعدل، وتدرك أن "الفلسطيني فقير واقف في العراء"، لا يخشى الذهاب إلى فلسطين، بل يخاف من "حفر عميقة"، تعترض طريقه قبل الذهاب إليها. والأساسي في هذا ، مهما تكن الأحوال، هو موقف "الروح المصرية"من فلسطين، الذي يتضمنه ما هو قومي ويتجاوزه، وينطوي على ما هو ديني ويفيض عليه والمقترن بعفوية "الفلاح الفصيح"، الذي يعرف ما يجب وما لا يجب، دون حاجة إلى مواعظ وفتاوى وبلاغة تلوذ بالمقدس وتتاجر به.

في كتاب له طعم الذكريات عنوانه: "كناسة الدكان"، مرّ يحيى حقي على صور جنود مصريين، ذاهبين في اتجاه فلسطين أو عائدين منها، ومزج الحروف بالدموع. وفي "أصوات الليل" رسم محمد البساطي، الوديع الضاحك المقتصد اللغة، "ريفياً مصرياً" شهد حروب فلسطين المتلاحقة، وانتهى كسيراً تحت ثقل التعب والذكريات. ورضوى عاشور تأملت مصر وفلسطين في "أطياف" وسعت إلى استنهاض الفلسطينيين في روايتها: "الطنطورية"، التي جمعت بين التوثيق والمتخيّل وتفائل مستريح، سوف تأتي به الأيام، ربما.. كانت في أطياف رضوى صور الأديبة المقاتلة لطيفة الزيات، التي عملت مع غيرها ضد "التطبيع"، "وخالفت تعاليم الحكومة" وانتهت مع غيرها، إلى "سجن للنساء" حكت عنه في روايتها "حملة تفتيش"، حيث التفتيش في زمن الشيخوخة يبدأ بالنفس، قبل أن يدهم "عسس الحكومة" الأوراق والكتب ويفتشوا ثنايا العقل والضمير.

ما الذي دعا يحيى حقي، الرقيق المولع بالموسيقى، إلى إيقاظ صور تستدر الدموع، ولماذا جمع محمد البساطي بين أحزان مصر وفلسطين والعراق في عمل رهيف الصياغة، وما الذي جعل لطيفة الزيات فلسطينية المنظور، ولماذا انجذب ابراهيم عبد المجيد وصنع الله إبراهيم وغيرهما إلى قضايا الفلسطينيين؟.تذهب ألـ "لماذا" هذه إلى جميع الأدباء المصريين، روائيين وشعراء، وتظفر بإجابة سريعة، يعرفها الأدباء المصريون ولا ينتظرون أحداً، أكان "عالماً" متعالماً يرفع راية الإيمان كي يحجب دور مصر، أو "مفكراً تلفيقياً" يدافع عن مصر ولا يعترف بإرادة المصريين.

لا سبب عند المصريين، حاضراً أو ماضياً، يدفعهم إلى خذلان فلسطين، ليبراليين كانوا تحرّكهم مصريتهم، أم يساريين وطنيين ورثتهم الماركسية العداء للصهيونية، أو بسطاء يؤمنون بـ "الأديان السماوية" ويفصلون بين الظلم والعدالة. ومع أن تاريخ" مصر الدولة "لم يساوق، دائماً، طموحات الفلسطينيين، بسبب "تبعية"، إلزامية، أو مختارة، فصّل أسبابها سمير أمين في أكثر من دراسة، فقد حافظ المصريون على موقفهم من القضية الفلسطينية، مدركين الفرق بين زمن السلطة التابعة وتاريخ مصر التحرري الطويل.

ينهي بنيامين نتنياهو كتابه "مكان تحت الشمس" بـ"حقيقة مدهشة" تقول : "عندما طلب فريدريك الأكبر من طبيبه أن يأتيه ببرهان عن وجود الله، اكتفى بالقول: إن وجود اليهود هو الدليل على وجود الله". والله لا علاقة له باغتصاب فلسطين، ولا بولادة إسرائيل وإمكانية استمرارها. لهذا أتى الجيش المصري في "حرب أكتوبر"، ببرهان مغاير، حين أنزل بدولة "أرض الميعاد" هزيمة واسعة.

٣. الفلسطينيون وخزانة الرموز المصرية

أصالة الشعوب من رموزها، واصالتها الأكيدة من استمرارية الرموز وتجددها. ولمصر أصالتها في الحالين، منذ أن وهبتها الطبيعة نهر النيل، وغدت مصر هبة له، ومنذ أن شيّد الفراعنة الأهرامات والآثار المهيبة، إلى أن جاءت "قاهرة المعز"، وأفردت مكاناً لبناء "جامع الأزهر". عرف الفلسطيني العادي مصر المتخيلة، قبل مصر الواقعية، منجذباً إلى رموز متشجّرة، وإلى هالة لها ملامح دينية، إذ نهر النيل "ينبع من الجنة"، أو من "سدرة المنتهى"، كما كان يقول المدرّسون من أهل الريف الفلسطيني، وإذ الأزهر حافظ للعلم وتاج له، يكسو الدارس فيه وقاراً وهيبة، والهرم عنوان مجد قديم، وإذ في "قاهرة المعز" أكثر من قاهرة، كما في عبد الناصر البكباشي الريفي الأصول وعد بإرجاع "اللاجئين" إلى ديارهم. كان إرسال "الولد الفلسطيني" لطلب العلم في القاهرة حلم العائلات الميسورة وكان حلم العائلات الفلاحية "عالماً أزهرياً"، باركه علمه وأنطقه بلغة عربية خاصة. كان الفلسطيني، ولا يزال، يعرف مصر من رموزها، ويستمد من رمزيتها ثقة قائمة أو مؤجلة. أكدّت الثورة القائمة الرموز المعروفة، وأضافت إليها رمزاً جديداً، عنوانه "ميدان التحرير". انتظره فلسطينيون يتطلّعون إلى "مصر القوية".

عاش الفلسطينيون صور مصر الواقعية والمتخيلة، في خمسينات القرن الماضي وجزءاً من ستيناته، مرتين: فمصر بلد تسبقه رموزه، وتسبق أهميتها الدول العربية مجتمعة، وهي بلد كتب زعيمه عن "فلسفة الثورة"، وتحدّث عن فارس تائه ارتاح، أخيراً، على ضفاف النيل وحمل معه وعوداً كبيرة فيها مكان لقدس محررة. ما من بيت في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين إلا وتصدّرته صورة الرئيس عبد الناصر، وما من بيت إلا وبكى رحيله، واحتفظ بصورته، التي عادت، وقد علتها صفرة وشحوب، في مظاهرات اللاجئين إثر انتفاضة فلسطين الكبرى عام ١٩٨٧. كان محمود درويش قد عبّر عن "الوجد الفلسطيني"في علاقته بمصر المنشودة، حين قال "وكأن النيل تمثال من الماء استراح إلى الأبد". لم تكن استراحة النهر، الذي لم يسترح، إلا حديثاً عن "اليتم الفلسطيني" الذي وقع على اللاجئين حين "ظنوا" أن مصر خذلتهم وذهبت إلى جهة أخرى. لم يكن في الرثاء ما يخالف "حقيقة

ما"، منذ أن اقتنع الفلسطيني العاقل أن مآل قضيته من يقظة مصر ومن "سباتها" الذي يفقر العرب جميعاً. ولهذا تبدو ثورة يناير، كما ثورة يونيو التي تلتها، واقعة تاريخية مصرية، بقدر ما هي واقعة فلسطينية وعربية. ومن المحقق أن ما يحدس به الفلسطينيون يعود إلى "تجارب عملية"، بعد أن عرفوا بعد "الخمسينات الواعدة "عقوداً خانقة"، زادت شتاتهم شتاتاً، وأشعلت النار بخيامهم البائسة. تلا رحيل عبد الناصر شعور فلسطيني بالهوان.

لمصر في الذاكرة الثقافية الفلسطينية موقع لا يجاريها فيه غيرها من الدول العربية، منذ أن اختارها "المثقفون الأحرار"، عرباً وفلسطينيين، ملاذاً لهم، وأدركوا أن مصر مرجع "القول الثقافي" ومكانه الصحيح. فقد نشر الفلسطيني اللامع روحي الخالدي، رائد "النقد الأدبي المقارن" كما يقال، كتابه : "تاريخ علم الأدب عند الإفرانج والعرب وفيكتور هوكو"، عند دار الهلال في مصر عام ١٩٠٤، ومنع اسمه عن الطبعة الأولى خوفاً من السلطان عبد الحميد. واختارها خليل السكاكيني ملجئاً، حين ترك منصبه التعليمي في فلسطين، احتجاجاً على مندوب سامٍ يهودي وصهيوني معاً. عاد السكاكيني إلى مصر قبل سقوط فلسطين، حين اختاره طه حسين وغيره عضواً في "المجمع اللغوي العربي في القاهرة"، ورجع لاحقاً إلى العاصمة المصرية، مودعاً وطنه ومكتبته، ليعيش سنوات قليلة ويرحل. وكان غيره من الأدباء يتصلون بمصر عن طريق مجلة أحمد حسن الزيّات "الرسالة" وينشرون فيها، حال "إسعاف النشاشيبي"، الذي أراد أن يكون أديباً صعلوكاً في زمن لا يسمح بالصعلكة. أما اسحق موسى الحسيني، خرّيج كمبردج، فنشر في مصر روايته الوحيدة "مذكرات دجاجة"، في أوائل أربعينات القرن الماضي، سائلاً طه حسين المباركة والتعريف، الذي لم يضن عليه بمقدمة مريحة. وستعود الفلسطينية عنبرة الخالدي لتسأل السيد العميد مقدمة لكتابها عن "الإنياذة"، عارفة أن صاحب "الأيام" لا يمنع دعمه عن أحد، وأن اعتراف أديب مصري كبير بها مدخل إلى اعتراف أكثر اتساعاً.

حين أراد جبرا إبراهيم جبرا، في سيرته الجزئية "البئر الأولى" أن يذكر عناصر ثقافته، في أيام الصبا، أشار إلى مجلة "الرسالة" وإلى طبعة مصرية لكتاب "ألف ليلة وليلة" ولم ينسَ، في أكثر من مكان، "أيام" طه حسين وكتب إبراهيم المازني. والواضح لدى هؤلاء المثقفين جميعاً ماثل في : الاعتراف والانتساب، فالذين يعترف بهم المصريون يعترف بهم في فلسطين وغيرها، بقدر ما أن الانتساب إلى "الثقافة المصرية" شهادة على أديب حقيقي. من الممكن في هذا المجال قراءة أفكار خليل السكاكيني، المربي الديمقراطي والعقلاني واللغوي النبيه، على ضوء أفكار طه حسين، الذي علّمه أن الإنسان المفيد محصلة لتكامل الفردية المتحررة والمعرفة.

ومع أن أسماء الخالدي والسكاكيني والحسيني تردّ إلى فلسطين ما قبل ـ النكبة، حافظ المثقفون

المصريون، بعد النكبة، على رعاية الفلسطينيين وثقافتهم، وحافظ "هؤلاء اللاجئون" على وحدة الاعتراف والانتساب. قرأ فلسطينيو الشتات ديوان الشاعر معين بسيسو "الأشجار تموت واقفة" في طبعة مصرية، وقدمت دار الهلال "سداسية الأيام الستة" لإميل حبيبي للقراء العرب والفلسطينيين، وقام الراحل رجاء النقّاش بالتعريف بمحمود درويش الشاب في كتاب صدر عن دار الهلال أيضاً. كأن في روح مصر ما يحتضن "روحي الخالدي"، في مطلع القرن العشرين، وما يحتضن غيره بعد سبعة عقود وأكثر.

شدّت رمزية القدس المصريين إلى "المسألة الفلسطينية" في طور منها، وشدّت رمزية مصر الفلسطينيين إليها في الأطوار جميعاً، أكان ذلك على المستوى المعنوي ـ الثقافي، أم على مستوى عملي ـ كفاحي اقتنع به الفلسطينيون، قبل التجربة وبعدها. فرئيس "حكومة عموم فلسطين" أحمد حلمي باشا التي تأسست عام ١٩٤٨، أنهى حياته في القاهرة، ووضع مكتب "الحكومة" تحت تصرف "رابطة طلبة فلسطين في القاهرة"، الذي كان يشرف عليه الراحل ياسر عرفات، وعبد الناصر هو الذي قال، عشية ولادة منظمة التحرير عام ١٩٦٥: "لقد ولدت هذه المنظمة لتعيش". والأمر في التحديد الأخير لا ينفصل عن الذاكرة العادلة والتحليل التاريخي ـ السياسي الصحيح الذي يخبر الفلسطينيين أن ضعف مصر يضيّق فعلهم السياسي، ويجعل أفق قضيتهم أكثر ضيقاً.

٤. مصر وولادة تاريخ جديد:

تأمل الفيلسوف الفرنسي الكبير آلان باديو ثورة مصر، وكانت في بداياتها، وكتب مقالة عنوانها : التاريخ يولد من جديد. لم يكن بإمكانه، وهو المتعدد والمتردد والرافض للعولمة المتوحشة والمعادي لدولة إسرائيل والصهيونية، أن يختار عنوان مقالته، لو لم يكن مقتنعاً بأمرين: أن التاريخ يولد من وقائع نوعية فاصلة، تطرد زمناً وتدشّن زمناً جديداً، لن يسمح بعودة ما كان مسيطراً قبله. وأن مصر في تاريخها الوليد تنتج معه وبه "مجالاً تاريخياً" يمس مصر وغير مصر في آن. كان يفكر بالأبعاد الكونية للثورة المصرية، التي إن نجحت في مصر استولدت ثورات لاحقة، لن تترك العالم كما كان. ربما كان وعي الفيلسوف بهذه الحقيقة، كما وعي خصومه بها، هو الذي يفسّر "السعار العجيب" الذي ردّت به الإدارة الأمريكية وشركاؤها على التحوّلات الأخيرة في مصر، ذلك أن "ركود مصر"الموطّد بمنظور متخلّف تابع" ضمان "استقرار المنطقة"، الذي يعني "استقرار المصالح الغربية".

رأى الفيلسوف الفرنسي في "ميدان التحرير" مجازاً للمكان الثوري، الذي يوسع التمرد رقعته، ويستولد منه زمناً جديداً متدافعاً مفتوحاً، ينشد هدفاً يتضمن بالضرورة أهدافاً متعددة. وميدان

التحرير هو "الجماهير الثائرة"، التي تحتله لتحرّره، وتبني فيه ثورة مبدعة، مثالها في ذاتها، ولا تركن إلى مثال سبق. لا غرابة أن تكون الثورة المصرية متحررة من "النماذج السياسية السابقة"، ومتحررة أكثر من الأيديولوجيات "الجاهزة"، وأن تسترشد بأمر محدد: وحدة الأهداف العملية والفعل اليومي، فهي ثورة من أجل تحقيق "الحاجات الإنسانية اليومية"، التي تتضمن الخبز والحرية والكرامة الوطنية، ولا تهجس بنموذج سياسي معطى، ليبرالي المضمون كان، أم "عودة إلى خلافة متوهّمة"، لا مجال لعودتها على أية حال.

أنجز المصريون ثورة على غير مثال، لا تزال قيد الإنجاز، وقرأ فيها الفيلسوف الفرنسي ملامح لثورة كونية قادمة.

في "عودة التاريخ"، الذي يعني سقوط مرحلة ونهوض مرحلة مغايرة، ما يذكر برواية الحكيم "عودة الروح"، التي فصلت بين الحياة والموت، ورأت حياة مصر في شعب تمرّد على قيوده وانطلق إلى المستقبل. لا يعود التاريخ إلا بثورة، تقهر الزمن الميت بزمن فاعل، ولا تعود الروح إلا بشعب افتدى كرامته بروحه، وآمن أن في مصر الراكدة والمحروقة العروق مصراً أخرى لها آثار فاعلة في الداخل والخارج. ذلك أن قوة مصر في خارجها من قوتها في داخلها، وأن داخلها، حين يصبح قوياً، يعيد ترتيب "القيادات" في مصر والشرق الأوسط والعالم العربي والعالم بأسره. أدرك الجغرافي الراحل جمال حمدان جدل الداخل والخارج، حين برهن أن "المكان العبقري" محدد جغرافياً وعسكرياً واستراتيجياً، وأن لمصر عبقريتها المكانية الكامنة، التي تبدو جلية حين تصحو.

انطلاقاً من جدل الداخل والخارج، المرتبط بمصر قوية، لا يكون التزام مصر بفلسطين شأناً قومياً، بلغة شعاراتية لا تنقصها البلادة، ولا إلزاماً دينياً، بلغة متدروشة شاردة، ولا واجباً أخلاقياً بلغة لا معنى لها، بل يكون هذا "الالتزام ـ الإلزام" شأناً مصرياً، تمليه مصلحة مصر، التي تحتاج إلى "فضاء حيوي" يليق بإمكانياتها، لا تغلقه قوة عسكرية قريبة وافدة وغريبة عن العالم العربي، ولا تتدخل في قضاياه "قوة إقليمية" تريد أن تبني سطوتها على ركام العالم العربي، وأن تنتقم من "الماضي" بمعطيات جديدة.

تميّز لغة الفلسفة بين شكلين من الإمكانية: الإمكانية المجردة القائمة بـ "القوة" والمعوقة التحقق لأسباب مختلفة، والإمكانية الفعلية التي تنقل الإنسان إلى حقل ملموس وعياني. وما الثورة المصرية الجارية إلا آية على حضور "الإمكانية الفعلية"، التي تشمل إمكانيات متعددة، يجتمع فيها الجغرافي والإنساني والسياسي والعسكري، وتسير نحو مصر "تظللها المعرفة" وتظلل المعرفة، بلغة طه حسين وهو يغلق كتابه: "مستقبل الثقافة في مصر"..

تنسى بعض العقول الفارغة، فلسطينية كانت أو غيرها، تضحيات الفلسطينيين من أجل توحيد نسبي بين المرغوب والمتاح، وتنسى معه الرابطة الفلسطينية ـ المصرية، التي صنعتها صورة مصر في الوعي الفلسطيني ودماء الشهداء المصريين من أجل فلسطين. كتب محمد حسنين هيكل في كتابه "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل": "ما بين بداية المقاومة على أرض فلسطين ذاتها، وهي البؤرة الساخنة للمواجهة، وحتى سنة ١٩٩٣، قدم الشعب الفلسطيني ٢٦١,٠٠٠ شهيد، ١٨٦٩,٠٠٠ جريح، ١٦١,٠٠٠ معوق". كان في ذهن الصحفي الكبير عدد المصريين من الشهداء والجرحى والمعوّقين الذين خاضوا معارك من أجل فلسطين، وهو عدد كبير. أشار في كلامه العادل إلى جدل "الداخل والخارج القريب"، الذي يؤكد أن قضية فلسطين ليست من خارج مصر، وأن مصر المدافعة عن تحققها الوطني تدافع، إلزاماً، عن الحقوق الفلسطينية.

"المسألة الفلسطينية" علاقة داخلية في المسار المصري، لا تتطفل عليه ولا هي بالعنصر الغريب عنه، ومصر علاقة داخلية فيها، ذلك أن مستقبل فلسطين من آفاق التمرّد الشعبي في مصر، الذي يقرّر أن"العدل المنتظر" معركة يومية مفتوحة.

صحفي مصري بشوش الوجه يردّد، في برنامجه اليومي: "تحيا مصر"، ويرددها معه الفلسطينيون الصادقون، في مناطق شتاتهم المختلفة.